

سُورَةُ الشَّمْسِ

obeikandi.com

عرض ودراسة

أقسم الله في هذه السورة القصيرة بأقسام متوالية : بالشمس وضحاها ، وبالقمر ، وبالنهار ، وبالليل ، وبالسماء ، وبالأرض ، وبالنفس واستعدادها ، دالاً بذلك على قدرته وحكمته ، ومرغباً في طاعته ومنفراً من معصيته ، ومنذراً أهل مكة من الكفار والمشركين أن يصيبهم إن تمادوا في الكفر والعصيان ما أصاب ثمود قوم صالح عليه السلام حين خالفوا عن أمره . ففعلوا الناقاة وكذبوه ، فأنزل الله بهم الهلاك والدمار عقاباً ونكالاً .

(والشمس وضحاها) :

لعل أروع ما لفت الإنسان وبلغته على توالي العصور موكب الشمس وهي تبدو من الأفق في مطلع النهار ، وتمضي في الصعود إلى وسط السماء ، وكلما تعالت ازدادت حرارتها ، حتى إذا كان الضحى زاغ البصر من كثرة ما ترسل من أضواء ، أضواء تحيط بكل شيء ، كأنما تريد أن تشعل الحياة إشعاعاً لا يخمد في كل ما تقع عليه . وهي هناك في السماء تتراءى في جلال . وكأنما ألهم أجدادنا الأولون مالها من تأثير في حياتهم ، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يعرفون عنها ما نعرفه الآن من أنها مصدر الحياة في الأرض وكل ظواهرها الطبيعية بفضل طاقاتها الحرارية التي تبعث الحياة في كل الكائنات الأرضية والتي تُعد القوى المائية والأمطار والأنهار ، والتي أتاحت وتتيح لنا جميع موارد الطاقة ذرية وغير ذرية . وكل ذلك لم يكن يعرفه الأجداد المتعمقون في القدم ، ولكنهم أحسوا إحساساً دقيقاً بخطورها ، وراعهم موكبها

اليومى وأنه لولا بزوغها كل صباح لأظلمت الدنيا وظلت فى كسوف مستمر ،
وكأنما شعروا أنها صاحبة السلطان الأول فى الوجود ، إذ توقد الكون بمصابيح
أشعتها ، وكل شيء يمسح من الشروق إلى الغروب فى أضواءها التى تتولد
كل يوم وتتألاً والتي ترسل الحياة فى كل كائن من كائنات الوجود .
لذلك كله قدسوها وعبدها وجعلوها أكبر معبوداتهم لا فى مصر وحدها بل
فى جزيرة العرب وفى غيرها ، إنها آية كبرى من آيات الكون هى ضياءها الذى
يبلغ الأوج منذ الضحى وأنواره القوية . والله جل ثناؤه يقسم بها وبضحائها
أو ضوءها حين يسطيع نوره ويُلْهب كل ما يمر به ، ليلفت إلى بهاها وروعة
صنعها وصنع ما ترسله من حرارة وأشعة تبثان الحياة فى الوجود ، إنه صنع يشهد
بقدرته الخارقة وما يرافقها من دقة وبصر بمواقع الأشياء ، بحيث لا يبدو
فى صنعه لتلك الآية الكبرى أى خلل ، فهى تبرز وتغرب بميقات ، وهى
ترسل أشعتها وحرارتها بمقدار ، أليس فى ذلك ما يدل أكبر الدلالة على أنه
واحد أحد لا شريك له ، يفعل ما يشاء كما يشاء على مقتضى حكمة
باهرة ، دون أن يمسه نصب أو تعب أو يدركه قصور أو عجز فى نقض أو
إبرام . إنه القوى القادر الذى لا نهاية لقدرته والذى له ملك السموات
والأرض ، وكل ما فيهما يصرفه ، حسب حكمته فى خلقه ، وحسب ما
يريده من مصلحة ومنفعة . ويكرر الله فى القرآن مراراً أنه سخر للإنسان
الشمس كى ينتفع بها أكبر نفع ، ينتفع بميقاتها اليومى وضوئها وحرارتها وينتفع
بمنازلها وما ينشأ عنها من فصول لها أثر بعيد فى حياته وكل ما يتصل بها من
زروعه وغير زروعه . وهو يقسم بها ليجذبه من حضيض الكفر والعصيان
إلى ساحة الإيمان والعرفان بأنه مدبر الكون المتفضل بكل ما فيه من نعم

وآلاء ينعم بها الإنسان صباح مساء ، وجدير به أن يعبده . إنه الإله الحق رب العالمين العزيز بسلطانه لا ينازعه أحد ولا يمانعه ، الحكيم بتدبيره لا يشوبه أى نقص ولا يداخله أى خلل ، له التصرف الكلى فى الوجود جميعه شمساً وغير شمس وضحى وغير ضحى ، وله نفوذ الأمر فى جميع كائناته من الكواكب وغير الكواكب ومما نعلم ومما لانعلم ، تنزهت ذاته وتقدسست أفعاله وصفاته .

(وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا) :

القمر هو الكوكب الباهر الثانى الذى لفت الإنسان منذ القدم ، إذ رآه حين يُرْخى الظلام سدوله على التلال والوديان والجبال والأشجار والينابيع والآبار والأنهار وجميع المسالك والدروب يرسل نوره على جميع البقاع ، فإذا الحياة التى انطفأت فى كل مكان بانطفاء الشمس قد استيقظت من سباتها ولم يعد يرين عليها الصمت والسكون والركود ، فقد دبَّت الحركة فى الوجود ، ولم يعد الإنسان أسير الظلام ولا عاد يلبسه ويلابس كل ما حوله فقد طرده نور القمر . وهو نور لطيف لا تمازجه حرارة كحرارة ضوء الشمس ، وكأنه رحمة كبرى تبرز فى السماء لإنقاذ الإنسان من جنود الظلام ووحشته ومخاوفه ، ولذلك طالما ناغاه الإنسان على نحو ما يناغى الطفل المصباح ، لما له من أثر فى تحريك نفسه وبعث خواطره ولما يجد له من أنس ومسرة . وكان طبيعياً لأجدادنا الأولين فى بدء الحياة الإنسانية أن يعبلوه ويقدسوه كما قدسوا الشمس وعبلوها إنه وحده الذى يعتلى عرش الليل كما تعلى الشمس عرش النهار ، يستقلّ بسلطنة الليل ، وكان الكون يرى وجهه فى مرآته ،

وكل شيء فيه يكتسى بهاء وجمالا : التلال والكثبان والجبال والوديان والكلأ والأشجار والمياه ، والنجوم تلمع ، وهو يبرز في جلاله ، وقد تبدد كل ظلام وتبددت كل وحشة ، والإنسان الذى نبت من الأرض المظلمة ينظر إليه في خشوع متأملا في أشعته الفضية . والله جَلُّ ثَنَاوِهِ يقسم به ليلفت إلى تلك الآية الرائعة من آيات خلقه المحكم ، وكأنه سَفِيرٌ له عندهم ، سفير يحمل إليهم رحمته بهم ورعايته لهم آتاء الليل ، رعاية تحتضنهم فيها أشعة القمر ، تغسل من عيونهم غبار الوحشة والظلمة ، وتنير لهم كل المسالك والطرق ، والأرض تستقبلها هائثة بها فاتحة لها ضورها ، تريد أن تنبث في كل ذراتها ، حتى تتجلى في نورها وتتجلى بلونها . وهو الله مفيض النعم على الإنسان ، خلقه من التراب المظلم ، وأثار له الوجود وجعله كله نوراً ، أما في النهار فأضواء الشمس تغمر كل مكان نوراً وحرارة تكتن في الحياة ، وأما في الليل فيبدو القمر بأنواره التى نفتحها فيه الشمس بما تعكسه عليه من أشعتها ، وهو معنى قوله عز ذكره : (إِذَا تَلَّهَا) أى تلا الشمس وتبعها ، فهو تابع لها يقتبس من نورها ، وإلى ذلك أشارت آية سورة يونس : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ) . والضياء أعلى مرتبة من النور ، وكان نور القمر يتجلى فيه ضياء الشمس ، فهو مظهر لتجليه ، ولذلك كان دونه في الاسم وفي الحقيقة . ويذكر الله أنه قدر مسيرة القمر في ليالى الشهر التى يظهر فيها قليلا أو كثيرا ، أو بعبارة أخرى في منازلها الثمانية والعشرين ، لتعرف بذلك الشهور والسنون ، ويعرف الحساب بالأوقات من الشهور والأسابيع والأيام حتى تنتظم مصالح الناس في سائر شؤونهم الدينية والمعاشية . ويذكر الله مرارا أنه سخر القمر كما سخر الشمس

للإنسان حتى ينتفع بهما في حياته ما استطاع إلى الانتفاع سبيلاً ، إنه لم يخلقهما لكي يعبدهما من دونه ، بل ليعبد صانعهما العظيم وليستقر في نفسه شكره على ما أنعم به عليه من ضياء الشمس ونور القمر ، فتلك آيتان من آيات خلقه البديع دالتان أكبر الدلالة على كمال قدرته وعظيم تدبيره وأنه إذا خلق شيئاً أقامه في أدق تقدير له ، ثم أجراه إلى غايته . وقد أجرى القمر والشمس لضيء بهما الكون ليلاً ونهاراً ، لا لكي يعبدهما الإنسان أو يعبد غيرهما من الكواكب ، وإنما لكي يعرف في أعماقه نعم الله عليه . ويؤمن بأن كل تلك الكواكب السماوية تخضع لإله أعظم منها شأناً ، وفي ذلك يقول في سورة فصلت : (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ) فهو الذي وهب لهما الضياء والنور ، ولو شاء لطمس النور ومحا الضياء وأظلم الوجود ظلاماً لا نهاية له . إنه هو وحده الخالق بالسجود والعبادة وأن تعنو له كل الوجوه .

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) :

النهار هو زمان ضياء الشمس . وقيل أوله بزوغها من الأفق ، والصحيح أنه من طلوع الفجر ومبادئ ضوئها فيه ، أما آخره فغروبها ، وهو وقت الصيام في رمضان من تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر أو بعبارة أخرى من تبين بياض النهار من سواد الليل . والله عزَّ ثناؤه يقسم بالنهار حين يجلو الشمس في ضيائها الكامل ، كما يقسم بالليل حين يسترها بظلمته ، فيغيب عن الوجود موكب أضوائها ، كما يغيب القمر ومحفل أنواره ، ويعم الركود والسكون ويخلد الوجود إلى الهدوء ، وكأنما تبطل الحركة حتى

يفضى الإنسان إلى الاستجمام طلباً للراحة ، إذ قَسَمَ اللهُ له حياته بين الحركة والسكون أو بين العمل والجَمَام ، إذ لو كانت حياته عملاً خالصاً لانتقضت قواه وما استطاع أن يمضي في حياته وعمله وما تقتضيه شئون عيشه من حركة . ومن برِّ الله به ورحمته أن جعل له النهار معاشاً والليل سكناً ، ولو كانت حياته نهاراً محضاً لضعفت عاجلاً مُنْتَه وَقُوَّتُهُ ولما أُتِيحَ له من الاستطاعة والطاقة ما مكَّنه من الرقي بالحياة الإنسانية وإحداث ما هيأ لها من حضارة ومدنية ، ولو كانت حياته ليلاً صِرْفاً ما تبين له شيء في الوجود ولبطلت حركته وبطلت معها حياته ، وأصبح موجوداً كمعدوم وحيّاً كميّت ، وفي ذلك يقول جَلَّ شأنه في سورة القصص : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، فالله تعالى شأنه جعل للإنسان النهار ليلتمس فيه معاشه مبتغياً من فضل ربه ما يحفظ له وجوده ويصونه ، بل ما يدفعه إلى الرقي والنهوض ، مسخراً له كل شيء في الوجود من الكواكب وغير الكواكب ، كي يرقى بحياته مراتب الرقي والكمال الإنسانيين ، وكى يصعد بها إلى منازل السمو التي يريدتها . ولما كان ذلك يحتاج منه إلى تعب وعناء وكان لا بد للمتعب من سكون تبطل فيه حركته ويكون راحة له وجماماً من تعبهِ وعنائه خلق اللهُ له الليل حتى يريح جسده فيه من الحركة ، وجعل له النوم فيه ، حتى ينسكن جسده سكوناً تاماً وتنسكن روحه وينسكن فكره ، فإذا كل ما فيه ظاهراً وباطناً قد سكنت

حركته ، حتى ليغيب عن كل ما حوله ، بل حتى ليغيب عما يمسك بيده ، فإذا كان فيها شيء ونام استرخت يده وانفتحت أصابعه وبآيئها ما كانت تمسكه . وتتضح حاجة الإنسان إلى النوم إذا سهر ليلة فإنه في الليلة الثانية يغلبه النوم ويقهره ولا يستطيع مقاومته ، مما يدل على حاجة الإنسان إليه بأشد مما يحتاج إلى الدواء لعلله وأمراضه . وفي ذلك ما يصور نعمة الله على الإنسان إذ جعل له النهار للحركة وطلب العيش والليل للراحة والنوم ، وجعلهما متعاقبين ليتوالى العمل والراحة ، أما العمل فيعود إليه الإنسان نشيطاً بما حقق لنفسه من استجمام كامل ، وأما الراحة فإنما يتكامل الشعور بها بعد العمل الشاق ، ومثلها النوم فإنه إنما يلد صاحبه بعد التعب والضنى ، إذ يستغرق فيه استغراقاً تاماً ويسترخي جسده استرخاءً كاملاً ، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة النبأ : (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) أى راحة لأيدانكم . وقيل السبات الموت ، سُمي استرخاء البدن وفقدانه الحركة موتاً ، وتصور ذلك آية سورة الزمر في أوضح عبارة ، وهي قوله تعالى ذكره : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) سُمي النوم موتاً لفقدان الإنسان الحس فيه وعجزه عن الإدراك والحركة والتصرف ، وهي نعمة أرادها له ، ليأخذ حاجته من الراحة والاستجمام ، وحرى به أن يعرف قدرها وقدر هذا الصانع العظيم الذى خلق الشمس والقمر وخلق الليل والنهار وجعلهما له راحة ومعاشاً .

(وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا) :

(ما) في الآيتين مصدرية أى والسماء وبنائها والأرض وطحوها ، وقيل إنها

بمعنى مَنْ أَى والسما ومن بناها أو شادها والأرض وَمَنْ طحاها أو مهّدا ،
والرأى الأول أوضح . وقد أقسم الله بالسما وما أودع فيها من نظام عبّر عنه
بالبناء ، إذ رفعها على قواعد منها الجاذبية المعروفة فى المجموعة الشمسية ،
ووراء هذه القاعدة قواعد أخرى كثيرة لا نعرفها ولا يحيط بها علمنا . وقد
خلق فيها الشمس والقمر والنجوم السيارة والكواكب المشرقة والغاربة .
وتُطلق السما على كل ما علا الأرض ، ولذلك كانت تُدعى موطن السحاب
والأمطار كما قال تعالى فى سورة البقرة : (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) وهو رزق تختلف ثماره وألوانه وأنواعه . وتتبع السما
الرياح حارة وباردة وليّنة وعاصفة وجالبة للمطر والخير ومهلكة ، كما يتبعها
الطير المسخّر فى أجوائها ، ما يمسكه إلا الله ، وتتبعها أيضاً الثلوج والصواعق .
والسما بكل ما فيها من قريب وبعيد ومن كواكب ونجوم بناءً عجيباً ،
ويكفى أن نتدبر فى مجموعتنا الشمسية وما بها من شمس وقمر وكواكب
لنحسّ عجائب خلق الله فى الكون وأنه لا بد له من بانٍ يبنيه وصانع يقيمه .
وإذا نحن عبّرنا مجموعتنا إلى مجاميع الكواكب الأخرى ونجومها ملأنا
العجب ، ويكفى أن نعرف أن عدد النجوم يتجاوز لا الملايين وإنما البلايين ،
وأن منها ما تبلغ سرعة ضوئه نحو مائتى ألف ميل وأنه لا يصل إلينا إلا بعد
عدد من السنين يتفاوت قلة وكثرة . وكل هذه النجوم والكواكب تسير
بحركات منتظمة فى الفضاء الكونى الشامل لا يمسخها سوى الله ، فلا عمد
ولا علائق ، وإنما قدرة الله وحدها ، وهى قدرة تسخّر كل ما فى السما
لنا ، فالإنسان مركز الكون وكل ما فيه مخلوق من أجله ، ويقرر القرآن
ذلك مراراً وتكراراً كما فى آية الجاثية : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ

وما في الأرضِ جميعاً مِنْهُ) فكل ما في السموات مسخر للإنسان كي يفيد منه أكبر فائدة . وبالمثل الأرض فقد طحاها الله أو مهدها ووطأها للإنسان كما قال في سورة البقرة (فِرَاشًا) يفترشها ويستقر عليها . وكأنها بيته ، بل كأنها نفس فراشه الذي يضطجع عليه ويجد فيه راحته . وما ليس مهياً منها لأول الأمر كي يكون فراشاً يستطيع أن يجعله فراشاً كالكوخ يتخذه فوق الجبل وكالفلك يتخذها في البحر . وقد أمدّه الله في الأرض بالمياه والينابيع والأنهار والمعادن الصلبة والسائلة والجواهر من الذهب والفضة كما أمدّه بالحيوانات والطيور والنباتات والأشجار والزررع ، وجعل له الزمان أربعة فصول . ولكل فصل جوّه وثماره ، ومع الأمطار والأنهار تخرج الأرض غروسيها وأزهارها وثمارها وتتوالد الحيوانات وتكثر الألبان ، وتأخذ الثمار والحبوب في النضج وتيبس ثم تجف . ويحصد الحاصد الحبوب . ويقطف القاطف الثمار والأعنان . وبينما الجو في الربيع معتدل رطب إذا هو في الصيف حار يابس ، وبينما هو في الخريف معتدل جاف إذا هو في الشتاء بارد رطب ، إذ تكثر الأمطار وقد تسقط في بعض البقاع الثلوج ، وتهمد الأرض كالجسد يطلب الراحة والاستجمام . فلا تعود إلى الحركة والعمل والنشاط إلا في الربيع بفضل اعتدال جوه وما يصحبه من حرارة تعدد للحب في باطن الأرض أن ينشق وأن يغذوه التراب بأثدائه حتى يستطيل نباته ، وعلى هذه الشاكلة تُعدُّ الأشجار للثمار والغروس للأزهار . وفوق ذلك كله يدالله وقدرته التي خلقت اليئس والرطوبة والحرارة والبرودة وعناصر الأرض كلها من التراب والماء والنار والهواء ، كما خلقت العذوبة والملوحة والطعوم الغذائية والرياحين الملمدة والأصوات المطربة والألوان الممتعة . كل ذلك جعله الله للإنسان في الأرض بالإضافة إلى

ما جعله له في السماء ، مما ينبغي أن يدفعه دفعا نحو عبادته . شكرا لنعمه
الظاهرة في كل ما تقع عليه عينه مما لا يستطيع له وصفا ولا إحصاء وعدا .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) :

مر بنا في سورة التكوير أن النفس هي الروح كما تشهد بذلك
الأحاديث النبوية . وقد تطلق في الذكر الحكيم على ما يشمل الروح والجسد
معاً كما جاء في سورة النساء : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) إذ أجمع أهل التأويل
على أن المراد بالآية نهى الناس عن أن يقتل بعضهم بعضاً ، ولعل هذا المعنى
هو المراد بالآية فالنفس فيها تشمل الروح التي تسرى في البدن سريان
رائحة الورد في مائه وتحفظ. عليه حياته حتى إذا فارقتة أصبح جماداً
فاقد الحس والحركة وكل ما يتصل بأسباب الحياة . كما تشمل البدن
الذي تستخدمه في حياتها وأعضائه وجوارحه وقواه الظاهرة والباطنة . (وَمَا
سَوَّاهَا) أى تسويتها في الخلق وتعديل أعضائها وجوارحها وقواها كما قال
جل شأنه في سورة الانفطار : (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ
فَسَوَّاهُ فَعَدَلَكَ) أى ما خدعك وحملك على عصيانه وكفران نعمته واقتراف
مآلاته يلقى بشأنه وقد تفضل عليك فضلاً كبيراً فضل الربى الراعى الذى
ينشئ ما يربيه خير تنشئة ، وقد خلقك وأحسن خلقك وتدبيرك ، إذ
دبر خلق روحك وخلق جسدك وخلق أعضائك وخلق قواك تدبيراً محكماً .
سدّد فيه روحك لكى تستقبل الهدى ولا تنحرف عن طريقه إلا إذا اعترضها
هوى أو وسوس لها شيطان ، وجعل لها قوة على الصعود فى مراتب هذا الهدى
منزلة بعد منزلة ، بحيث تستطيع الحصول على أعلى منازل الكمال الروحى ،

وسدّد أيضاً البدن بأن جعل أعضائه وجوارحه سويّة مستعدة أتم استعداد لأداء منافعتها بحيث يؤدي كل عضو وكل جراحة منفعته التي خلّق لأدائها كالتكلم للسان والبصر للعين والسمع للأذن والشمّ للأنف واللمس والبطش لليد والمشي للقدم . فكل شيء في الإنسان جسداً وروحاً أعطى ما تم به وظيفته على خير وجه وفق الحكمة الربانية في الخلق والتسوية سواء في روحه وطباعه أو في عقله وفكره وعلمه وفطنته أو في حواسّه ومزاجه ولذّته وألمه أو في انتصاب قامته وتعادل أعضائه وجوارحه وحسن صورته المادية والمعنوية . ولذلك جاء أن الله خلق الإنسان على صورته أي أنه خلقه في أتم صورة إذ أعطاه حسن الخلقه ، وهياًه ليكون حسن الطباع وليكون كاملاً في حياته وعلمه وإرادته ، وهداه إلى ما فيه فلاحه وسعادته في دنياه وآخرته ، بحيث يستطيع الصعود من عالمه الدنيوي إلى أعلى المراتب في العالم الروحي . وكل ذلك بما أودع الله في روح الإنسان وقواه الظاهرة والمستترة وملكاته العقلية من مدخّرات لا يُعرّف لها حدٌ ولا يحيط بها وصف ، وهي مدخّرات تشهد بأن صانعاً عظيماً وراء هذا الخلق العجيب للنفس ، والله يقسم بها وبخلقها ليلفت إلى أنه هو الذي أبدعها إبداعاً يشهد بربوبيته ، وأنه خلقها وهياً لها من الاستعداد ما يجعلها تختار طريق الهدى والرشاد .

(فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) :

هذه الآية معطوفة على الفعل السابق لها مباشرة ، أي ونفس وتسويتها فالإلهامها فجورها وتقواها . والضمير المستتر في الفعل ألهم يعود على الله بدلالة السياق . وأصل معنى الإلهام إلقاء الشيء في الروح والقلب ، والمراد في الآية التبيين أي تبيين طريق الفجور وطريق التقوى ، وقيل المراد إلهام النفس حالهما

من القبح والحسن وما يؤدي إليه كل منهما ، ومكثها من اختيار أيهما شاءت .
وقال بعض أهل التأويل الإلهام لا يكون إلا في الخير ، فلا يقال في الشر
إنه إلهام من الله . أما إلهام النفس الفجور في الآية فالمراد أنه عرفها به
لتجنبه . وقيل إلهام النفس فجورها لتعلمه ولا تعمل به ، وإلهامها تقواها
لتعلمه وتعمل به ، فهو في الفجور إلهام علم لا إلهام عمل ، إذ الله كما قال
في سورة الأعراف : (لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) وكما لا يأمر بها لا يلهمها أحد .
وكان هذه الآية كآية سورة البلد السابقة لتلك السورة : (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)
أى طريقى الخير والشر ، أوضحناهما له . وقال الشيخ الجليل محمد عبده في
معنى الآية إن الله وهب النفس العقل الذى يميز بين الخير والشر ، والفجور
إتيان ما ينتهى بالنفس إلى الخسران والهلكة والتقوى إتيان ما يحفظ النفس
من سوء العاقبة . وواضح أن الآية لا يُفهم منها أن سلوك طريق الخير وطريق
الشر من عمل الله وأنه مكتوب على الإنسان فى ألواح القضاء ولا مفر له منه
خلاقاً لبعض من حاولوا أن يستنبطوا ذلك منها ، وقد مضوا يسندون كلامهم
بما روى عن الرسول عليه السلام من أنه كان إذا قرأ الآية قال : « اللّهُمَّ آتِ
نَفْسِي تَقْوَاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا وَأَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا » وأيضاً ما روى من أن
رجلين من مزيّنة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله أرأيت
ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قُضِي عليهم ومضى فيهم من قدر
سابق أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال
لا بل شيء قُضِي عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل :
(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) . وتزكية الله للنفس فى
الحديث الأول وما سبق به القدر فى الحديث الثانى إنما يراد بهما إعداد

الإنسان لذلك وتبيته لا أن هدى الإنسان وضلاله من عمل الله ، وإلا فكيف يقيم الحجة عليه حين يفجر ؟ وكيف يلزمه مسؤوليته إزاء ما يقترفه ؟ ومر بنا في سورة التكوير أن هناك دائرتين : دائرة كبرى تتعلق بها الأسباب العامة للإنسان وحياته الإنسانية ، وهي خاصة بالله جلّ جلاله ، ودائرة صغرى خاصة بكل فرد تتعلق بها أفعاله واعتقاداته ، ولا تعارض بين الدائرتين ، فالله وضع الأسباب الكلية للفجور والتقوى وزكاة النفس وطهرها ، أما اختيار أحد الطريقتين والمضى فيه فمن عمل الإنسان ، ولذلك كان ، إذا ارتكب كفراً أو عصياناً أو فجوراً ، مسئولاً عما ارتكب ، وحق عليه العقاب بمقدار ذنبه أو ذنوبه ، وإذا اختار طريق الهدى فأطاع ربه واتقاه وعمل صالحاً حتى له الثواب بمقدار عمله وطاعته وتقواه .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :

التزكية أصلها من زكا الزرع والمال إذا كثر وزاد . وسمى إخراج المال زكاة لما فيه من رجاء الزيادة والبركة أو لأنه يزكى النفس وينمئها بالخيرات والبركات . وقيل أصل التزكية الشناء الجميل ، ومنه تزكية القاضي الشاهد ، وقيل بل أصل معنى التزكية التطهير . والفلاح الظفر وإدراك البغية ، وهو ضربان دنيوي وأخروي ، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة والأخروي الظفر بنعيم الجنان . وهو يقتضى الظفر على النفس فلا يتابع الإنسان هواه ، والظفر على الدنيا فلا تطغيه ملذاتها ، والظفر على أصدقاء السوء فلا يطيعهم فيما يقترفونه من آثام ، والظفر على الشيطان فلا يستمع إلى وساوسه . وهو ينتهى إلى الفوز بالمراد والنجاة من المكروه .

والمفلح في الآية هو الفائز بالجنة والناجي من عذاب النار ، وهو المتوجه إلى ربه بالطاعة وبجميع أعماله وأحواله . وهو يزكى نفسه أى ينميها بما يشرق عليها من نور التقوي وبملازمتها للطاعات وعمل الخيرات ، أو هو يطهرها من كل ضروب المعصيات عقيدة وسلوكاً وعملاً وقولاً . وقد توالى أقسام سبعة عظيمة على فلاح من زكى نفسه حثاً على ذلك وترغيباً . والآية بذلك وتالياتها جواب القسم ، وتدخل اللام على قد في الجواب ، فيقال لقد أفلح ، وكأنها حذف لظول الأقسام ، فصار طولها عوضاً عنها . وقيل جواب القسم محذوف تقديره لتبعثن . وقال الزمخشري هو مفهوم من بقية السورة ، وتقديره ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم الرسول عليه السلام كما دمد على ثمود لتكذيبهم رسولهم صالحاً . والرأى الأول أكثر ملائمة لتتابع السياق في السورة . و (خَابَ) خسر ولم ينل ما ابتغى ، و (دَسَّاهَا) من الدس ، وأصلها من دَسَّس كما يقات قَصَّيْت أَظْفَارِي وَأَصْلُهُ قَصَّصْت أَظْفَارِي ، ومثل قولهم : تَقَصَّى وَتَقَصَّصَ . ومعنى التدسيس الإخفاء وكأنه يُخْفَى نفسه بالمعاصي . وقال المفسرون : كان أجواد العرب ينزلون الربى ومرتعات الأرض ويوقدون النار في الليل حتى يراهم الطارقون والسائلون فيقصدونهم ، وكان اللثام ينزلون أسافل الأودية ليخفوا أنفسهم عن الطالبين وذوى الحاجة ، فكان يقال للأوليين إنهم علوا بأنفسهم وزكَّوها أى رفعوها وشهروها ، وكان يقال للثانين إنهم أخفوا أنفسهم ودسوها . وكذلك التقاة رفعوا نفوسهم وأعلوها وسَمَّوْا بها ، والفجار أخفوا أنفسهم وخطَّوها ودَّسَّوها ، فالتقى أظهر نفسه بأعمال البر والخير ، والفاجر أخفاها بأعمال الفجر والكفر ، وكان الله جَلَّ شأنه خلق النفس المدبرة للبدن مستعدة

قابلة لتكون خيرة ولترقى في مراتب الكمال ، واختلفت النفوس فمنها ما صدر عما أفاضه الله فيها من القوى المستعدة لتلقى الهدى ، ومنها ما أخفى هذه القوى وطمرها في داخله واستمع إلى دواعي الهوى ، فالأولون أصحاب الفلاح والهدى والتقوى والرشاد ، والأخرون أصحاب الفجر والفساد والكفر والضلال .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا)

يدعو القرآن الناس دعوة متكررة للنظر في ملكوت السموات والأرض من مثل قوله في سورة آل عمران : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وكما جاء في أقسام هذه السورة ، فهو يدعو دائماً للتفكير والتدبر في الكون والوجود ليلتفت الإنسان إلى أن للعالم إليها أحده وصانعاً صنعه ، إذ لا بد لكل بناء من بان ، وإلا جاز أن يحدث البناء نفسه وهو محال . وبالمثل يدعو إلى أن يفكر في خلقه وأطواره وفي نفسه كما قال في سورة الذاريات : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) وكما قال في هذه السورة : (وَتَنْفِسِ وَمَا سَوَّاهَا) فقد انتقل في أطوار من التكوين في تضاعيف الحمل إلى الولادة إلى الصبا ثم الشباب . وعقله ينمو معه وتنمو أعضاؤه حتى يبلغ أشده ثم يصبح كهلاً ثم يصير شيخاً ، وليس له شأن في كل ذلك ، بحيث لا يستطيع أن يفارق عهد الشيخوخة والضعف مثلاً إلى عهد الشباب والقوة ، أطواراً مختلفة لا بد لها من صانع يصنعها وينقلها من طور إلى طور . غير ما منحه الإنسان من السمع والبصر والفؤاد ومن الحواس وإدراك المدركات ومن المعرفة وأنواع العلوم إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة الشاهدة بوجود الله مدبر الكون وبوحدانيته وكمال

قدرته . ويدعو القرآن الإنسان إلى أن يتلفت حواله . فسيجد الأرض تعود إلى الحياة بعد أن كانت مواتاً وبعد أن أصبح زرعها ونباتها هشيماً تذروه الرياح . أليس في ذلك ما يدل على أن من يعيد للأرض الحياة يستطيع أن يعيد الناس بعد موتهم إلى حياة أعظم وأروع من حياتهم الأولى . ولينظروا ثانية إلى الأرض فيجدوا الله يرسل عليها الأمطار والمياه فتتشقق بالنبات والزرع والأشجار والثمار والحبوب مما فيه قوام الإنسان والحيوان . إن كل هذه الآيات الكونية ترشدنا إلى الإيمان بالله وبقدرته المسيطرة على كل قوة وكل شيء في الوجود . ويدعو القرآن الناس إلى أن يسيروا في الأرض ليشاهدوا آثار الهلاك والدمار الذي نزل بالأمم التي كذبت رسلها ، كما قال تعالى في سورة غافر : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) . فقد اقتضت حكمة الله ورعايته للناس من قديم أن يرسل إليهم رسلا منهم مبشرين ومنذرين ليخلصوهم من ظلمات الكفر والضلال وينشروا بينهم نور الهدى والإيمان ويحققوا لهم السعادة في الدارين ، حتى اختار للناس كافة محمداً ، لتجد فيه الإنسانية هداها الأخير ، غير أن كثيرين كذبوه ، كما كذب الرسل السابقين أقوامهم ، مما جعل الدمار يحيق بهم . والله يقص على رسوله وعلى الناس أخبارهم . ليجد فيها عزاءً له . وليزجر من يكذبونه فيسارعوا إلى تصديقه والدخول في دينه الحنيف حتى لا ينزل بهم الدمار والهلاك كما نزل بمن كذبوا الرسل واستهزءوا بهم من الأمم الدائرة . ومن هذه الأمم ثمود قوم صالح عليه السلام ، كانوا يسكنون شمالي الحجاز في « الحجْر » المعروفة باسم « مدائن صالح » وفيما

حواليها ، وقد عُرفوا في العالم القديم منذ القرن السابع قبل الميلاد ، والمظنون أنهم ظلوا حتى القرون الأولى للميلاد . وعثر العلماء في ديارهم على كثير من النقوش ، وهي مكتوبة بالخط اليمنى الجنوبي المسمى بالمسند ، وتصور طوراً من أطوار اللغة العربية في عصورها الجاهلية الأولى . ويشير القرآن إلى ما بلغوه من حضارة إذ اتخذوا لأنفسهم من سهول ديارهم قصوراً ونحتوا من الجبال بيوتاً ، وأرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وألا يشركوا به أحداً ، وقال لهم إنه رسول ربهم جاء ليلقهم رسالته ولينقذهم مما هم فيه من ضلال ووثنية ، وليربهم الطريق الذي يكفل لهم سعادتهم ، فقال له كبارؤهم وطغاتهم أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ، إننا لفي شك مما تقول وإنك لفي ضلال مبين . ومضوا يحاجونه ويحاجون من تبعه من ضعفاء قومه ، وطلبوا منه برهاناً على صدقه في رسالته وما يقوله عن ربه . وأخذوا يعلنون عُتُوهم وطغواهم أو طغيانهم ، وانبعث وهاج أشقى ثمود وكبيرها في الطغيان أو من كُتِبَ عليه الشقاء منهم يحادون الله ورسوله ، ويطلبون البينة على صحة رسالته والبرهان .

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) :

وَضَعَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَتَحْتَ أَعْيُنِهِمْ آيَةَ الدَّالَّةِ عَلَى صَدَقِهِ إِذْ طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَعْدُوا بَيْنَ نَاقَةِ اللَّهِ وَبَيْنَ نَوْقِهِمْ ، فَيَتْرَكُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا يَمْسُوهَا بِسُوءِ كَمَا يَتْرَكُوا لَهَا شِرْبَهَا وَنَصِيْبَهَا مِنَ الْمَاءِ فَلَا يَطْرُدُوهَا عَنْهُ فِي نَوْبَتِهَا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ : (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

يُسْوَءُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) فهي آية له ومعجزة دالة على رسالته إن مسوها بسوء ولم يتركوا لها حظها ونصيبها في الرعى أو شك أن يأخذهم عذاب لا يبتقى منهم ولا يذُرُّ. وقال لهم أيضاً إن لها حظاً من الماء ينبغي أن تتركوه لها كما جاء في سورة الشعراء : (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ). ومضى صالح ينذرهم ويدعوهم إلى الهدى والإيمان بربهم ، معدداً ما أنعم به عليهم من القصور والحضارة ومن الجنات والحدائق والبساتين ومن الآبار والعيون ، وهو في أثناء ذلك يحذّرهم أن يقربوا ناقة الله أو يقربوا سقياها أو يتعرضوا لها بسوء ، فيحق عليهم غضب الله وتحلّ عليهم نقمته . وكلما كرر عليهم ذلك لوّحوا بأيديهم في وجهه استكباراً وعتواً وطمعاً ، طالبين إليه أن ينزل بهم العذاب الموهوم الذي طالما توعدهم به ، وعبثاً يقول لهم لِمَ ترفضون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب وتعتنقون الكفر الذي يجلب إليكم العقاب هلا تتوبون إلى الله من الكفر والشرك والعصيان لعلكم تدخلون في رحمته ومغفرته . وهم يقولون له إننا متشائمون بك وبنافتك ، فكفّ عنا رسالتك ولا تتّاد في دعوتك فإننا لن نتبعك أنت ومن آمن بك من السفهاء والضعفاء ، وينصحهم وهم لا ينتصحنون بل يمشون في عنادهم وطمعانهم مكذبين له أشدّ تكذيب ، حتى ليصموا على أن يعتدوا على ناقة الله عدواناً أثيماً .

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) :

كذبوا رسول الله صالحاً في وعيده الذي أنذرهم به ، فعقروا الناقة أي

نحروها غلواً في التكذيب وعُتُوا . وكان في «الحجر» تسعة رجال هم أكثر أهلها بغياً وعدواناً فائتمروا بصالح بعد ذبح الناقة أن يقتلوه ويخفوا قتله ، وهو ما أشار إليه الله في سورة التَّمَلُّ بِقَوْلِهِ : (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) . قالوا نخرج عن أهلنا مظهرين السَّفَرِ ونكون في غار حتى إذا جَنَّ اللَّيْلُ أَتَيْنَا صَالِحًا وَأَهْلَهُ فَقَتَلْنَاهُمْ ، وَقَالُوا (مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ) وَلَا حَضْرَاهُ وَلَا نَدْرَى مِنْ قَتْلِهِ وَقَتَلَ أَهْلَهُ (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فِي إِنكَارِنَا لِقَتْلِهِ . وَيُرْوَى أَنَّ الْغَارَ سَقَطَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلْتَهُمْ . وَيُقَالُ إِنَّ الْغَارَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ دَارِ صَالِحٍ فَانْحَدَرَتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ أَتَتْ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا . وَمَا مَضَتْ عَلَى ثَمُودَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى دَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ . وَمَعْنَى دَمَدَمَ أَطْبَقَ ، وَقِيلَ دَمَّرَ ، وَقِيلَ أَهْلَكَ بِاسْتِثْصَالٍ ، وَقِيلَ بَلِ سَوَّى التَّرَابَ ، يُقَالُ دَمَدَمَ عَلَى الْمَيْتِ التَّرَابَ إِذَا سَوَّاهُ عَلَيْهِ ، وَالتَّسْوِيَةُ مَفْهُومَةٌ مِنْ بَقِيَةِ الْآيَةِ : (فَسَوَّاهَا) أَيْ سَوَّى عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ ، لَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا صَالِحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ ، فَإِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ الْعِقَابَ وَاقِعٌ ، فَصَاحَ فِي أَصْحَابِهِ ، وَنَجَّوْا جَمِيعًا . وَذَكَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّهُ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، كَأَنَّمَا أَهْلَكُوا بِزَلْزَالٍ عَاتٍ أَوْ بَرَكَانٍ شَدِيدٍ . وَفِي سُورَةِ هُودٍ أَنَّهُ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنَ السَّمَاءِ وَهِيَ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ . وَفِي سُورَةِ فُصِّلَتْ : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وَهَدَيْنَاهُمْ أَيْ بَيَّنَّا لَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ ، فَآتَرُوا الْعَمَى أَيْ الْكُفْرَ عَلَى الْهُدَى ، فَشَمَلَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْمُهِينِ بِمَا اكْتَسَبُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِ صَالِحٍ وَعَقْرِهِمُ النَّاقَةَ . وَكَانَ الْعَذَابُ الَّذِي أَخَذَهُمْ كَانَ صَوَاعِقَ

وصيحات ورجفات مهلكة (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ) أى باركين على ركبهم هامدين صرعى لا حراك بهم ، نكالاً لهم ولأمثالهم ممن يكذبون الرسل ، عتواً وطغياناً ، فإذا الله يرسل عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كما يُرسل الهلاك والدمار .

(وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) :

معنى الآية أن الله جلَّ شأنه دمر منازل ثمود وديارهم غير خائف عاقبة الدمدمة وتبععتها كما يخاف بعض ذوى السلطان حين يحكمون حكماً جائراً ، إنه لا يفعل إلا العدل والحق ومن يكون فعله قائماً عليهما لا يخاف عاقبة فعل ولا يبالي بعاقبة ما صنع . وقيل الآية متصلة بآية : (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) أى أنه لا يهجم ما يعقب عقره للناقة وما يترتب عليه من صنوف البلاء والعذاب ، مع أن صالحاً عليه السلام أخبرهم بها . وهو رأى بعيد الاحتمال ومثله قول من قال إن الآية متصلة بآية : (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) أى أن رسول الله لا يخاف عقبي هذا الدمار لأنه كان قد أذنبهم وحذرهم . والخوف المنسوب في الآية إلى الله إنما يراد به التحرز لا الخوف المقرون بتوقع المكروه . وهو يشير إلى عدالة هذا الحكم ، فقد أرسل لهم صالحاً عليه السلام يهديهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدارين ، فبغوا وطفوا وأعلنوا العصيان لربهم ، وطلبوا منه برهاناً على صدقه ، فجاءهم بالناقة ، وطلب منهم ألا يتعرضوا لرعيها وشربها ، كما تقضى العدالة ، فرموا بوعيده عرض الحائط ، وأعلنوا جورهم وظلمهم وحادوا الله ورسوله ، فكان لا بد أن ينزل بهم عقابه جزاءً وفاقاً لبغيهم وطغيانهم وعتوهم وما تمادوا فيه من جور وعدوان .